حركة التبشير الروسية الارثوذكسية في القدس

أ.م.د. مشعل مفرح ظاهر الشمري
جامعة البصرة/ كليـــة الآداب

يعود الاهتمام الروسي بالأماكن المقدسة في فلسطين إلى القرن العاشر الميلادي أي بعد اعتناقهم المسيحية عام ٩٨٨م على المذهب الارثوذكسي[١]، كما إن ذلك الاعتناق قد ألزم الأمير فلاديمير Vladimir أمير كييف Kiev بتبني رحلات الحج الروسية إلى القدس أو القسطنطينية استناداً إلى رغبه رجال الكنيسة[٢]. كما لعب الرحالة الروس والشعراء الشعبيون دوراً كبيراً ومؤثراً في تشجيع العديد من رجال الدين والبسطاء من الناس في زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين لما قدموه من وصف مشوق لرحلاتهم ولاسيما القدس، كما وصف الشعراء جمال المدينة وأجواءها الدينية المميزة بأروع الأبيات الشعرية والأهازيج التي أثارت الرغبة عند الناس في زيارة تلك المقدسات، ومن أشهر تلك القصائد قصيدة الشاعر الروسي فاسيلي يوسلاييف Vasily Yuslaive الذي صور زيارته للقدس بصحبه أصدقائه، والتبرك جميعاً بزيارة كنيسة القيامة والاستحمام بنهر الأردن. إما القصيدة الثانية المشهورة في التراث الشعبي الروسي فهي (الأربعون من المتدينيين البسطاء). واحتوت هذه القصيدة على الكثير من المعلومات عن طريق الحج إلى بيت المقدس[٣].

إلا إن أهم المدونات الروسية عن القدس هي رحلة الراهب دانيال Danial رئيس الدير الروسي إلى بيت المقدس خلال عامي ١١٠٦ . ١١٠٨ م. اذ احتوت هذه المدونه على معلومات دقيقة لأبسط تفاصيل حياة المجتمع المقدسي، وعن تحصينات المدينة ومواردها المائية والغذائية ومقدساتها الإسلامية والمسيحية واليهودية، ومن جملة ماذكره الراهب عن المدينة((أنها مدينة عظيمة، أسوارها قوية ودائرية مبنية على أربع زوايا في هيئة صليب، وفيها حقول واسعة، وحولها جبال صخرية. وهذا المكان بلا ماء أي لايوجد فيه نهر ولاعين ماء. ولا بئر غير انه يوجد مكان واحد يمكن التبرك بمائه وهو سيلوعام*. فالناس جميعهم والمواشي أيضا يعتمدون على مياه المطار في تلك المدينة))[٤]. كما وصف العلاقة بين العرب والصليبين، وتكلم أيضا عن حفاوة العرب بالروس واهتمامهم بهم، وتحدث بإسهاب عن لقائه بالرهبان الروس المقيمين في القدس وبيت لحم ((. . . لقد ساعدني الرب انا الضعيف. . . هناك مرقد المسيح المقدس ويعيش فيه أبناء الروس المتطوعون))[٥].

واختيار دانيال جاء بتكليف رسمي من أمراء كييف باعتباره رئيس الدير فيها. ليعمل على إيجاد موطئ قدم لحكومته في المدينة المقدسة، ومما لاشك فيه ان مدونة دانيال عن رحلته التي استغرقت عامين كانت من أفضل المصادر الروسية التي تحدثت عن تاريخ المدينة المقدسة ولأهميتها ترجمت إلى اللغات الرئيسة آنذاك اللاتينية والانكليزية والفرنسية والألمانية. كما ترجمت إلى العربية فيما بعد [٦]. تأثرت رحلات الحج الروسية للاماكن المقدسة بالعلاقات الروسية السياسية مع بيزنطة وقيام عدة حروب بينهما. وعلى الرغم من عقد عدة معاهدات، التي كان من أهمها، معاهدة ١١٩١م. وتأثرت أيضا بالحروب الصليبية البيزنطية [٧]. والغزو المغولي لروسيا ١٢٤٠ – ١٤٨٢ م [٨]. لذلك كانت رحلات الحج الروسية متقطعة وغير منتظمة. إلا إن تلك الرحلات عانت صعوبة أكثر بعد احتلال العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣م إذ جرت عدة حروب بين الدولة العثمانية وروسيا حملت الطابع الديني في اغلبها مما اجبر العثمانيين على منع مثل تلك الرحلات الدينية الروسية وعدم السماح لها بالمرور عبر أراضيها الا بفرمان خاص من السلطان العثماني شخصاً[٩]، وحين اعتلى القيصر ايفان الرابع Ivan Iv ١٥٣٣–١٥٨٤م عرش روسيا بدأت الحكومة الاهتمام من جديد برحلات الحج. إلا أنها حملت معها الطابع ألاستخباراتي التجسسي أكثر من ان تكون دينية، وذلك بعد ان أعلن القيصر نفسه حامي الكنيسة الشرقية، ووريث عرش القياصرة البيزنطيين واتخاذه النسر شعارهم شعاراً لدولته الناشئة [١٠].

فأرسل للقدس الأموال اللازمة لبناء الاديره والكنائس ولتوزيع الصدقات فيها وفي بيت لحم على الفقراء المسيحيين باسمه. ومن أجل تحقيق أهدافه أرسل عام ١٥٥٩ م الراهب يوزيناكوف YouZeniakov إلى القدس، وقد دامت زيارته لها ثلاثة اشهر جمع خلالها المعلومات الوافية عن المدينة المقدسة من تحصينات والتركيبة السكانية والأطياف وموارد الحياة فيها واهم القوى المتنفذة فيها(١١).

وفي عام ١٦٣٤م أرسلت الحكومة القيصرية الراهب Kakar للاماكن المقدسة في فلسطين، وادعى الراهب هناك انه اتى من اجل الصلاة وطلب الرحمة والمغفرة. الا ان رحلته تلك استمرت ثلاث سنوات واستطاع خلالها جمع ما كلف به من معلومات عن القدس وبيت لحم وعن جميع المناطق التي مر بها بطريق الذهاب والعودة كالسامرة ودمشق وادرنه وديار بكر علماً بأن هذا الطريق لم يسبق للحجاج أو الرحالة الروس المرور به من قبل لذا فأن من المؤكد ان الحكومة هي التي امرته باتخاذ هذا الطريق الجديد للاطلاع على أوضاع الأقاليم العثمانية(١٢).

اثمرت تلك التقارير والمدونات بأن منحت قيصر الروس بطرس الاكبر Peter The Great ١٦٨٢ . ١٧٢٥ فكرة الوصول بروسيا القيصرية الى المياة الدافئة. اي الوصول الى مياة البحر الأسود ومنه الى البحر المتوسط وبصورة خاصة في الحدود الجنوبية للإمبراطورية الروسية والتوسع نحو الشمال حتى الوصول الى سواحل بحر البلطيق على حساب الأراضي السويدية(١٣).

فتركزت الدراسات الاستراتيجية في عهده على التعرف بأوضاع الأقاليم العثمانية، وتم ذلك بإشراف السفير الروسي في الأستانة تولستوي Tolstoi رغم انه كان اول سفير يمثل روسيا القيصرية في الدولة العثمانية عام ١٧٠١م(١٤). ومما يؤكد على جدية اهداف روسيا التوسعية التي لم تتحمل التأجيل في الوصول لتلك المناطق هي ان اول مهمة اوكلت للسفير الروسي هي عملية تسهيل منح الحجاج الروس فرمانات السلطان العثماني لزيارة الاماكن المقدسة في فلسطين. فأثمرت جهوده عن الموافقة لرحلة القس لوكيانوف A. Lockyanov وشقيقة ستيفان Stevan عام ١٧٠٧م وتبعتها رحلة القس افرام Afram عام ١٧١٢م. ومن ثم رحلة سلفاستر SelvelsTer عام ١٧٢٢. وان عدد هذه الرحلات المتزايد والمتعددة جاء بناءً على اهتمام القياصرة للقيام بهذه المهمة لمعرفة المزيد من المعلومات حول الأرض المقدسة(١٥). رغم تدهور الأوضاع الداخلية في روسيا اثر وفاة القيصر بطرس الأكبر عام ١٧٢٥ ودخول البلاد فترة صراع على العرش والتدخل الاجنبي الذي استمر حتى عام ١٧٦٢. الا اننا نجد ان الرحلات التبشيرية الروسية لم تتوقف إذا جاءت رحلة بارسكي ١٧١٠ – ١٧٤٧ ورحلة سيرابيون الى القدس في الربع الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي. فضلا عن ماقدمه الدبلوماسيون الروس من تقارير كان من اهمها تقارير أ. أ ينبلوبيف وفينشاكوف(١٦).

تابعت الامبراطورة كاترين الثانية Cathrain II ١٧٦٢ .١٧٩٦ سياسة سلفها القيصر بطرس الأكبر الخارجية والعمل على تحقيق أهدافه في توسع روسيا القيصرية. الا ان تلك السياسة قد أثارت حفيظة الدول الاوربية الاخرى مما دعاها الى اعلان الحرب ضد روسيا عام ١٧٦٨. الا ان القوات الروسية قد حققت عدة انتصارات واستطاعت احتلال بولندا والعمل على تقسيمها(١٧).

كما اضطرت روسيا الى ايقاف حربها ضد الدولة العثمانية نتيجة الثورة الفلاحية فيها وتوقيع معاهدة الصلح كوجك كينا رجي ١٧٧٤. وقد اقرت المعاهدة في بنودها حق روسيا التحدث باسم رعايا السلطان من المسيحيين الارثوذكس. كما اقرت حق روسيا في اقامة كنيسة ارثوذكسة في الاستانة على رأسها اساقفه روس، وكذلك اصبح الحق للرعايا الروس الحج الى بيت المقدس دون الحصول على موافقة الإدارة العثمانية ومنحت الاتفاقية روسيا ايضا الحق في فتح القنصليات في القدس وبيت لحم ويافا وحيفا فضلا عن وجود سفارتها في الاستانه (١٨).

وبذلك يكون من حق روسيا التدخل في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية تحت حجة حماية الا رثودكس ومنذ تلك المرحلة تحددت الطرق التي سارت عليها روسيا في الزحف على الممتلكات العثمانية في اسيا واربا الشرقية تحت اسم

(الرابطة للشعوب السلافيه) واثارت المتاعب للدوله العثمانية والدفاع عن الارثوذكس وحمايتهم خاصة في فلسطين [١٩]. وقد انعكست طموحات الامبراطورة الروسية على اهتمامها الكبير بالاماكن المقدسة ويتضح ذلك جلياً من خلال شروط معاهدة ياسي ١٧٩٢، اذ اكدت على شروط حماية الارثوذكس العثمانيين وبصورة خاصة في فلسطين. وعلى اثر تلك المعاهدة بدأت بدعم الرحلات الدينية التبشيرية. اذ وصل الراهب المسكوفي ميليتي Mility الى فلسطين عام ١٧٩٣ الذي دون ملاحظاته عن موسم الحج. في القدس[٢٠]. وجاء من بعده الراهب فيشيناكوف ١٨٠٤ . ١٨٠٥ الى القدس الذي دون معلومات دقيقة عن التركيبة السكانية لمدينه القدس ((. . . ان معظم السكان من العرب المسلمين مع قله من الاتراك وعدد كبير من النصارى الارثوذكس والكاثوليك. اما اليهود فعددهم قليل يسكنون احياء خاصة بهم. منازلهم جيده. يسكن معظمهم بجوار هيكل سليمان في الاقسام الشرقية من القدس. وهم في معزل عن السكان الآخرين ولهم أسواقهم الخاصة لبيع المأكولات ويمارسون التجارة والحرف المتنوعة))[٢١].

وفي عام ١٨٣٠ وصل الى القدس الكاتب اللاهوتي ومؤرخ الكنيسة الارثوذكسية والموظف في الشعبة الدبلوماسية التابعة لأركان الجيش الروسي الثاني مورافيوف Moraviov الذي وصل الى المدينة عبر صحراء سيناء ومن ثم الى غزة التي وصفها بأنها أغنى المدن الفلسطينية. وكتب مورافيوف التقارير الخاصة عن مدينة القدس لحكومة في بطرسبورغ. كما أوحى للشاعر الروسي المعروف ليرمنتوف Lermentov قصيدته المشهورة (غصن فلسطين) حيث اهداه سعف شجرة النخيل من فلسطين عام ١٨٣٧م [٢٢]. وجاء من بعده الى القدس عام ١٨٤٥ الطبيب زافا لوج Zavaloge عن طريق السويس ووصف بدقه المدن الفلسطينية التي زارها ومما جذب انتباهه في القدس كثرة الفقراء فيها وانهم يتزاحمون حول كنسيه القيامة، وان القسم الاكبر من المسيحيين يعيشون على هبات الاديرة. اما اليهود فيعيشون على الهبات التي يتبرع بها اخوانهم في الدين من مختلف انحاء العالم [٢٣].

بعد ان اعتلى السلطان العثماني عبد المجيد ١٨٣٩-١٨٦١ العرش بدأ العمل بإصلاح شؤون الدولة العثمانية الداخلية بمساعدة وزيرة الاول رشيد باشا[٢٤]. فخشيت روسيا من تلك الإصلاحات وما سينتج عنها. لذلك أثارت قضية حماية المسيحيين مجدداً وحقها في الإشراف على الكنائس والأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم على غرار ما حصل عليه الرهبان الكاثوليك من امتيازات لترضية فرنسا. فأعلنت روسيا معارضتها لذلك القرار مستندة الى بنود معاهدة كوجك كينارجي ١٧٧٤م ومعاهدة ياسي ١٧٩٢م التي اعطتها الحق في حماية المسيحيين آنذاك. الا انها جوبهت برفض الدولة العثمانية لمطالبها وبتأييد من بقية دول أوربا المسيحية[٢٥].

في عام١٨٤٣ أرسلت الكنيسة الارثوذكسيه الروسية المطرن بارفيري Parviery بمهمة سرية الى بيت المقدس، وبعد مرور اربع سنوات ارسل بارفيري تقريراً الى البطريكية الروسية طلب فية ارسال بعثة روسية دائمة في بيت المقدس تتولى حزمه المصالح الروسية فيها، والدفاع عن حقوق الحجاج الروس، والاشراف على كافه الكنائس والاديرة الارثوذكسية بناءً على اقتراح بارفيري الى القدس. وضمت في عقوبتها الراهب غوفاروف Govarov والتلميذ كريلوف Kerielov وصيلافيوف Selaviave وفي عام ١٨٤٨ اقترح المطران بارفيري من جديد على الحكومة القيصرية انشاء مجلس عموم روسيا لدعم الارثوذكس في القدس الا ان الحكومة اجلت موافقتها على المقترح لحين دراسته علما بانه تم انشاء الارساليه الروسية في القدس عام ١٨٤٩[٢٦] باشرت البعثة عملها في القدس فأسست عام ١٨٥٢ داراً للطباعة في بيت المقدس لإصدار الكتب الدينية الارثوذكسية باللغتين العربية واللاتينية وتوزيعها على المدارس الدينية الارثوذكسية[٢٧].

دخل الصراع بين الرهبان الكاثوليك والارثوذكس مرحلة جديدة حول حماية الأماكن المقدسة في فلسطين، وسرعان ما تحول الصراع الى قضية دولية بعد ان ساندت فرنسا رجال الدين الكاثوليك وساندت روسيا الارثوذكس. طالب الأمير نابليون الثالث Napoleon III ١٨٤٨-١٨٧٠ السلطان عبد المجيد بأن يعلن عام ١٨٥١ بوثيقة رسمية يؤكد فيها الوضع الأفضل لرجال الدين الكاثوليك وان جميع الكاثوليك يتمتعون بالحماية الفرنسية حسب الامتيازات التي وردت في معاهدة

١٧٤٠م. والتي لم يعد رجال الدين الكاثوليك يتمتعون بامتيازاتها في فلسطين وذلك بسبب الدعم الروسي للرهبان الارثوذكس فيها. ومن جهة أخرى لانشغال فرنسا بمشاكلها الداخلية وحروبها الخارجية في نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي(٢٨).

وقد أيدت الدولة الأوربية الكاثوليكية المطالب الفرنسية مما شكل وسيلة ضغط على السلطان العثماني عبد المجيد فاضطر في النهاية الى الاستجابة للمطالب الفرنسية. مما أثار ذلك القيصر الروسي نيقولا الأول Nicholas I ١٨٢٥-١٨٥٥ الذي لم يتردد في إعلان مطالبة الدولة العثمانية بالعدول عن قراره أو منح روسيا الحقوق نفسها في حماية ارثوذكس الدولة العثمانية (٢٩).

وبالواقع ان اثارة قضية الحماية ماهي الا قضية مفتعلة فنابليون الثالث اراد بها كسر الأحلاف الأوربية التي ظهرت بعد مؤتمر فينا ١٨١٥ والتي عانت منها فرنسا كثيراً وبهذه القضية نجح في ابعاد النمسا عن روسيا القيصرية اما القيصر الروسي فاراد استغلالها مع أجل التوسع ومد النفوذ الى مختلف الاقاليم العثمانية وبصورة خاصة في اوربا الشرقية وبلاد الشام ولاسيما بعد ان اكدت تقارير المبشرين البغض العربي للحكم العثماني(٣٠).

لم يكتف القيصر الروسي بالمطالبة بحماية ارثوذكس فلسطين بل زاد ليطلب حق الحماية لجميع ارثوذكس الدولة العثمانية وهو ما يقدر عددهم في تلك الفترة بـ ١٢ مليون مسيحي وعلى ضوء ذلك ارسل مبعوثه عضو مجلس الدولة مينشكوف Minshkav الى الاستانة للتفاوض. فوصلها يوم ٩ اذار ١٨٥٣. الا ان العثمانيين رفضوا المطالب الروسية(٣١)، مما اضطر بالوفد الروسي الى إخراج مشروع بديل على طاولة المفاوضات تمثل في حق روسيا الإشراف على انتخابات البطاركة الارثوذكس وإنشاء كنيسة جديدة مع ملحقاتها في القدس مع إعلان الحكومة العثمانية حصول روسيا على حق حماية ارثوذكس فلسطين على غرار ما حصل عليه الفرنسيون وفق معاهدة ١٧٤٠(٣٢).

إلا ان العثمانيين قد تعهدوا بحماية الكنائس وحصانتها واحترام حقوق رعاياها الارثوذكس وأبلغت المبعوث الروسي بان الدولة العثمانية ملتزمة بمعاهدة ١٧٤٠ مع فرنسا وانها لا تنوي تغييرها. وان المطالب الروسية لها مساس بالسيادة العثمانية وأمنها(٣٣).

حاول مينشكوف قدر المستطاع بأن لا يعود الى بطرسبورغ دون نتائج تذكر. فأخذ يكرر المحاولات بان يلزم الدولة العثمانية بإصدار بيان بان يحصل الارثوذكس على جميع الامتيازات التي حصلت عليها بقية الطوائف المسيحية كالكاثوليك والأرمن الا إنه فشل بالنهاية في ذلك واضطر للعودة في ٢١ ايار ١٨٥٣ وتبعه بالمغادرة القائم بالأعمال الروسي في الأستانة وخاصة بعد رفض المطالب ،بعدها اعلن القيصر تهديده بالحرب اذ لم تستجب الحكومة العثمانية لمطالبة وبالفعل دخلت القوات الروسية امارتي الدانوب في تموز ١٨٥٣(٣٤).

وعلى اثر ذلك الاحتلال عقد مؤتمر فيينا وبصورة غير رسمية، ضم سفراء كل من بريطانيا والنمسا وفرنسا وبروسيا والدولة العثمانية واتفق المجتمعون على ان يبقى امر حماية الرعايا المسيحيين حسب ما تقتضيه مصلحة الدولة العثمانية مع توجه إنذار لروسيا القيصرية بإرجاع الأراضي العثمانية المحتلة حديثاً (٣٥).

لم تستجب روسيا القيصرية للمطالب الدولية فأعلنت الدولة العثمانية الحرب ضدها في ١٦ تشرين الأول ١٨٥٣. الا ان الجيوش العثمانية منيت بعدة هزائم كان من أهمها معركة سنيوب ٣٠ تشرين الثاني ١٨٥٣ اذا تم تدمير الأسطول العثماني. مما دعت تلك الهزيمة بان تعلن كل من فرنسا وبريطانيا وسردينيا الحرب على روسيا القيصرية في حين نجحت النمسا في دور الوسيط بين الجانبين المتحاربين. واستمرت حرب القرم حتى عام ١٨٥٥ حقق خلالها الحلفاء عدة انتصارات على الجيوش الروسية(٣٦).

ويذكر المؤرخون ان تلك الهزائم كانت السبب المباشر في موت القيصر نيقولا الأول الذي لم يتوقع بأن تقهر جيوشه إمام الحلفاء. واعتلى من بعده ابنه الكسندر الثاني Alexander II العرش، وكان ميالاً للسلام ولكن بأقل الخسائر وبالفعل

قبل الوساطة النمساوية لانهاء الحرب في ٢٨ كانون الاول ١٨٥٥ وتم الاتفاق على جملة قرارات كان اهمها تخلي روسيا عن مطالبها بحماية رعايا الدولة العثمانية من المسيحيين الارثوذكس واحترام سياده الاراضي العثمانية وإعادة الدانوب للعثمانيين(٣٧).

رغم النتائج القاسية التي منيت فيها روسيا القيصرية والمعاهدة المذلة. لم توقف روسيا برنامجها التبشيري في القدس اذ رأت فيه المنفذ الوحيد للتحرك من اجل استعادة النفوذ مستقبلاً في تلك المناطق فاهتمت بإرسال السياح والرهبان. ومما يجذب الانتباه خلال تلك الفترة بأن هؤلاء الرهبان قد حملوا على عاتقهم تحسين صورة روسيا وقيصرها في المجتمعات العربية اذ حرص هؤلاء على إلقاء المحاضرات والكلمات الرنانة التي تعبر عن حب الروس للعرب مع تشويه وإظهار مساوئ الحكم العثماني(٣٨).

وبلغ عدد المبشرين عام ١٨٥٧ بـ ١٠٠ راهب وسائح، وزاد عدد الحجاج للقدس بشكل ملحوظ ولاسيما بعد فتح خط ملاحة بحري بين ميناء اوديسا الواقع على بحر الأسود وميناء حيفا الفلسطيني. وفى عام ١٨٥٨ أعادت الحكومة الروسية فتح قنصليتها في القدس. وإنشاء قسم جديد في وزارة الخارجية الروسية باسم(قسم فلسطين) اوكلت الية مهمة البحث عن مصادر تمويل جديدة وتوظيفها في توسيع ودعم النفوذ السياسي والديني في ارض فلسطين(٣٩). واستطاع ذلك القسم بعد عام من تأسيسه جمع اكثر من مليون روبل وتحويل المبلغ الى البعثة الروحية الروسية في القدس من اجل شراء الأراضي لبناء دار لاستضافة الحجاج الروس. وفي عام ١٨٥٩ تمكنت البعثة من شراء الأراضي الواقعة ما بين بوابة دمشق وساحة الميدان في القدس، والتي تعرف اليوم باسم ساحة الروس وسجلت تلك الاراضي باسم البعثة التبشرية الروحية الروسية في القدس وشرعت حال تسجيلها عام ١٨٦٠ ببناء دير القديسة الكساندرا ودير القديسين الثلاثة ومنازل اخرى مجاورة للمبشرين والحجاج (٤٠).

ولم يتوقف الرهبان والسياح في حملاتهم الدعائية للحكومة القيصرية في الاوساط العربية المسلمة وإثارتها ضد الحكم العثماني أو التواجد الأوربي فيها فيذكر لنا الرحالة كيرك Kierk في احد مدوناته((. . . . ان هذا الشعب (شعب فلسطين) يحب الروس ويميل اليهم بالقياس الى جميع الأوربيين الاخرين. وهل تعرف لماذا؟ لأن الروس يتعاملون معهم ببساطة وانسانية. اما الفرنسيون والانكليز وعلى وجه الخصوص الانكليز فيعاملونهم كما يعاملون الحيوانات وهذا الشعب حساس اكثر من غيره. يرنوا الى لطف وبشاشة الجوالين)).

اما الطبيب الروسي بيلسيف Peilsiev الذي تجول بالأماكن المقدسة بتكليف من قسم فلسطين سجل انطباعات العرب عن الروس والعثمانيين فضلا عن المجتمع العربي وفي عام ١٨٦٣ تم تكليف الارخيماندر يدليونيد (كافلين) مهمه رئاسة البعثة التبشيرية الروسية في القدس(٤١).

وقد عمل بكفاءة منقطعة النظير اذ اقترح على القيصر انشاء اللجنة الفلسطينية في وزارة الخارجية عوضا عن القسم الفلسطيني واستطاع من خلال تلك اللجنه شراء الاراضي وبناء الكنائس والاديرة والمستشفيات والمدارس الدينية وتكليف لجنة بدراسة تاريخ فلسطين بوجه عام والقدس بوجه خاص. حتى غدت البعثة التبشيرية الروسية تمتلك اراضي واسعة في القدس وبقية المناطق الفلسطينية (٤٢).

ساعدت التطورات على الساحة الدولية الى عودة روسيا القيصرية الى المجتمع الدول، وذلك بعد هزيمة فرنسا في معركة سيدان على يد الجيوش الروسية عام ١٨٧٠، وعقدها روسيا اتفاقية مع بريطانيا في ٣١ ايار ١٨٧٨ اعترفت فيها الاخيرة لروسيا بالسيطرة على باطومي مما اكد النفوذ الروسي في الولايات العثمانية (٤٣).

كما استغلت روسيا الحركات القومية في الاقاليم العثمانية واثارتها ضد الحكم العثماني في البلقان والاقاليم العربية في بلاد الشام الى جانبها عن طريق المبشرين الروس وقد ابدت روسيا تأييدها لهم وتقديم دعمها العسكري للتخلص من الحكم

العثماني. الا ان العرب رفضوا التدخل العسكري الروسي الى جانبهم خشية من استبدال الاحتلال العثماني بالاحتلال الروسي لأقاليمهم. الا انهم طلبوا منها الدعم السياسي والاعلامي عند الضرورة فقط [٤٤].

في سنه ١٨٨١ اصبح الكسندر الثالث Alexander III ١٨٨١ – ١٨٩٤ قيصراً لروسيا وقد اشرف على تربيته الراهب بوبيد نوستيف. وبذلك اصبح نفوذ الكنيسة الروسية يشمل قمه هرم السلطة فيها مما يدعم نشاط البعثات التبشيرية الارثوذكسية في القدس[٤٥].

وفي ٢١ اذار ١٨٨٢ تشكلت الجمعية الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية، وقد حصلت هذه الجمعية على حماية ورعاية بلاط القيصر الروسي، ودخل في عضويتها سبعة أمراء من ال رومانوف، وقد تولى مهمة الأشراف على عملها مجلس مكون من شقيق القيصر سيرجى Sergeyبمنصب المدير العام، والكاتب الروسي فيليبوف Velipove بمنصب نائب المدير. وعين ستيبانوف Stieonov سكرتيراً للجمعية كما انها ضمت العديد من الأساتذة والعلماء والأطباء والرهبان[٤٦].

وتم تصنيف العضوية فيها كالآتي:

١. أعضاء رئيسيين
٢. أعضاء عامين
٣. أعضاء مساعدين

وتتوقف درجة العضوية لكل منهم على قيمة الاشتراك السنوي الذي يدفعه العضو أو ما يتبرع به للجمعية خلال السنة كما اعلنت الجمعية عن اهدافها في بيانها التأسيسي[٤٧].

١. تقديم المساعدات اللازمة للحجاج الارثوذكس من روس وغيرهم بالأراضي المقدسة.
٢. إقامة المدارس والمستشفيات والدور المناب للحجاج.
٣. تقديم المساعدات للسكان الارثوذكس المحليين وللكنائس والأديرة والسلطات الروحية في القدس.
٤. البحث عن المصادر والمخطوطات التي تتضمن معلومات عن الاماكن المقدسة وترجمتها.
٥. تنظيم البعثات التبشيرية والاستكشافية وتمويلها في القدس.

اما مسالة التمويل فلقد اعتمدت على دعم الحكومة بالدرجة الاولى واشتراكات الاعضاء وتبرعات المواطنين. وقد باشرت الجمعية اعمالها على الفور فأرسلت ما يقارب عشرة ألاف حاج في السنة الأولى وقدمت لهم التسهيلات كافه من نقل ورعاية صحية ومساكن ومواد غذائية. وأصدرت مجلة خاصة بها (المجلة الارثوذكسية الفلسطينية) كان من اهم اعمالها تغطية اعمال الجمعية في الاراضي المقدسة [٤٨].

دعمت القنصليات الروسية نشاط الارساليات التبشيرية الارثوذكسية فقدمت السفارة الروسية في الأستانة التماساً الى السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧١ . ١٩٠٨ طلبت فيه السماح لها ببناء كنيستين الأولى في قرية طوزيتا والثانية في عين كرم في القدس الشريف وتكون تحت أشراف الدير الروسي فأصدر السلطان فرمانا بالموافقة عام ١٨٨٢ وبعد أربع سنوات تقدمت السفارة الروسية بطلب جديد تضمن السماح ببناء كنيسة في القدس تحت إشراف الدير الروسي وتمت الموافقة ايضا على الطلب في ٢٢ تشرين الأول ١٨٨٦[٤٩]. كما ان الجمعية قد أتمت بناء العديد من المدارس الدينية والمستشفيات خلال تلك الفترة ١٨٨٢ . ١٨٨٦ في مختلف المدن الفلسطينية وترميم العديد من الكنائس والأديرة كان في مقدمتها كنيسة القيامة[٥٠].

في اب ١٨٨٣ قام أعضاء جمعية اخوة مهد المسيح وممثلو الجمعية الروحية البيضاء المقدسة والشعب بانتخاب ثلاث مرشحين لرئاسة بطركية القدس الارثوذكسية، وكان من ضمنهم نيكوديم رئيس البعثة الروحية الروسية الارثوذكسية في بيت المقدس الذي استطاع الفوز بالرئاسة[٥١].

غير ان البطريك الجديد بدأ تعامله مع الجمعية الإمبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية بعدم الارتياح، وعندما بدأت الجمعية نشاطها التعليمي في الخليل والقدس تطور الامر الى خلاف بين البطريك والجمعية مما دعا الحكومة القيصرية الى التدخل كل الخلاف اذا كان ينكوديم يعتقد بان المبشرين الروس أصبحوا ذا نفوذ واسع في الأماكن المقدسة وأن واجبه الديني يحتم علية ايقافهم، ونجحت الحكومة في تقريب وجهات النظر وحل الخلاف. فاصدر البطريك موافقته على عدة مشاريع للجمعية في القدس والسامرة والخليل فاستعادت الجمعية موقفها في القدس وبقية المدن الفلسطينية بخاصة بعد ان صدرت ايضاً موافقة الينود المقدس في روسيا بجميع التبرعات من الكنائس في عيد انتقال السيد المسيح ﷺالى القدس(٥٢).

فظهرت حملة تبرعات سنوية عرفت باسم (تبرعات الشعانين) كما امتلكت الجمعية كافة الوثائق والمخططات التي عثرت عليها الخاصة بتاريخ فلسطين. وكلفت العلماء بدراستها ووضعها بأرشيف خاص بها، وقد شجعت هذه الدراسات حركة الاستشراق الروسي كثيراً اذ اهتم الكثير من الروس بدراسة تاريخ فلسطين والاماكن المقدسة فيها (٥٣).

دخلت الجمعية الإمبراطورية عدة صراعات مع بقية الجمعيات التبشيرية الاخرى خلال هذه الفترة من اجل بسط النفوذ بالقدس اذ دخلت في صراع مع البروتستانت والكاثوليك لابل زاد الامر بان تدخل في تنافس مع جمعية اخوة المهد الارثوذكسية اليونانية، واتهم البطريك نيكوديم بالتعصب للروس فقط بعد ان اقام الصلاة بكنيسة القيامة باللغة السلافية(٥٤).

اضطر بعد ذلك السيد خيتروف مساعد رئيس الجمعية الإمبراطورية الى زيارة القدس للاطلاع عن قرب على نشاط الجمعية ودورها التبشيري، وكتب احد المرافقين له ((. . . . . اثناء زيارتنا للقدس في ٢٠ كانون الاول التقى خيتروف في بيت المقدس بالبطريك نيكوديم، وأطلق البطريق لقب ملاك السلام على خيترافو، وقد قدم الوفد الى البطريك رسالة من رئيس الجمعية الإمبراطورية، وحين انتهى من قراءتها رد البطريك قائلا لنا: إنني اعلن دعمي للجمعية الإمبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية وارجو من الله أن يحقق امنيتي بذلك)) (٥٥).

وعلى ضوء ذلك قدمت الحكومة الروسية الدعم المادي لبناء الأديرة وترميم عدد من الكنائس في القدس وبيت لحم. وبالمقابل وافق البطريك على بناء العديد من المدارس التبشيرية في فلسطين. وأصدرت الجمعية مجلة أخرى سميت (إخبار الجمعية الإمبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية) وقد اهتمت هذه المجلة بإصدار دراسات المستشرقين عن الأراضي المقدسة عام ١٨٨٦(٥٦).

تجددت الخلافات بين المبشرين الأرثوذكس في القدس. بعد اتهام اليونانيين البطريك بخيانة الأمانة وان أموال الكنيسة خصصت لخدمة الجمعيات التبشيرية الروسية في القدس. وتصاعد الخلاف حتى وصل الى محاولة اغتيال البطريك في ١٩ اذار ١٨٨٨ في دير كيراسيم الأردني. الا انه نجا بأعجوبة وبفضل الحجاج الروس الذين أحاطوا به وافشلوا محاولة الاغتيال(٥٧).

رغم ان البطريك نيكوديم كان على راس هرم المبشرين الروس في القدس الا أنة هناك الكثير من الروس قد امتازوا بأعمالهم وعلى رأسهم كابوتين رئيس البعثة الروحية الروسية في القدس الذي اتم بناء دير قيامة السيد المسيح علية السلام على جبل ليون والعديد من الاديرة في مختلف المدن الفلسطينية كدير المعذبة الكساندرا والكنيسة الثلاثية ودير القديسة مريم المجدلية فضلاً عن دوره في بناء مساكن للحجاج والمدارس الدينية والمستشفيات (٥٨). اثارت اوضاع الارثوذكس والبعثات التبشيرية الروسية السيئة بعد عام ١٨٩٠ قلق الشعب والحكومة الروسية، خاصة ترك نيكوديم منصبة وهو الداعم الاول لها في القدس. فضلاً عن ازدياد نفوذ جمعيات التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية يها فقررت الحكومة القيصرية اعادة تفعيل انشطة الجمعية لحفاظ على دور المبشرين الروس ونفوذها في المنطقة ايضا. فاعلنت الجمعية لجنه فلسطين الروسية وتولت المهام كافه التي أوكلت اليها لتحصر جميع الأموال فيها. ومن اجل استعادة الجمعية نشاطها في القدس أصبحت الجمعية تشرف على جميع المدارس والمعاهد الدينية ومنحت الطلاب المتفوقين في تلك المدارس فرصة متابعة

دراستهم في أكاديمية كييف الروحية التي خرجت الدفعة الاولى منهم عام ١٨٩٣ وتم تعين من تخرج منهم في مدارس الجمعية بالمدن الفلسطينية أو بلاد الشام على وجه العموم. الا ان الجمعية واجهت مشاكل عدة في مطلع عام ١٨٩٥ بسبب الخلافات مع البطريك الجديد الذي أبدى عدم ارتياحه لوجود البعثات التبشيرية الروسية في القدس. مما دفع الجمعية الى نقل نشاطها الى المدن الفلسطينية الاخرى كالناصرة والجليل وافتتحت العديد من المدارس فيها. وقد كتبت الجمعية في تقريرها السنوي عن نشاطها لعام ١٨٩٦ ((. . . ماذا فعلنا نحن الروس ؟ لقد ألقينا بأنفسنا في الماء من اجل اخوتنا، وهذ أمر صعب جداً عندما يكون الماء عميقاً ويقف على الشاطي أخوة اخرين يدعموننا الى الوراء)) [٥٩].

مما يدلل هذا التقرير على مدى الصعوبات التي يواجهها المبشرون الروس وحاول أعضاء الجمعية استعادة نشاطهم بالقدس عام ١٨٩٨اذ افتتحوا مدرسة جديدة الا انهم تفاجؤوا بمقاطعة السكان المحليين لها وامتناعهم عن دعمها مما اجبر الجمعية على تحويلها الى مركز للأبحاث والدراسات وكتب البرفسور نيتسكوف الذي قدم فلسطين عام ١٨٩٩ كمفتش عام للمدارس التابعة للجمعية الإمبراطورية ((تعامل السلطة الروحية العليا في فلسطين بنوع من عدم الارتياح والاهتمام مع المدارس الروسية التي بنتها الجمعية الإمبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية [٦٠].

مما أجبرت تلك الأوضاع المتردية للجمعية في القدس الى تحجيم نشاطها واختصار مهامها على تقديم المساعدات للمدارس التابعة لها فقط. وركزت في نشاطها ودعمها على التبشيرية في سوريا ولبنان والأردن في تلك المرحلة وقد لقيت نجاحاً كبيرا في سوريا[٦١].

وفي الختام لقد ساعدت البعثات التبشيرية الروسية الارثوذكسية على انبعاث الروح القومية في منطقة الشرق العربي وخصوصاً خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٨٦٥-١٨٨٠ وذلك من خلال مساهمتها بتدريس اللغة العربية في مدارسها وتعريب الكثير من المصادر فضلاً عن اهتمامها بالتاريخ العربي وظهور حركة الاستشراق وما قدمته للعرب. كما ألقى العديد من المبشرين المحاضرات وأقاموا الندوات التي بينوا فيها مساوئ الحكم العثماني وان لم يكن ذلك الا من اجل مصالح روسيا السياسية ولكن ساهم في وعي الشعب العربي وقضيته القومية. وساهم خريجو مدارس البعثات التبشيرية بتشكيل الجمعيات العربية مثل جمعية الآداب والعلوم الذي أسسها ناصيف اليازجي وبطرس البستاني عام ١٨٤٧ في بيروت، والجمعية العلمية السورية ١٨٥٧ وجمعية بيروت السرية ١٨٥٧. وقد انعكست تلك الإعمال على العلاقات العثمانية الروسية اذ لم يطمأن العثمانيون لتواجد المبشرين الروس على أراضيها لإدراكها التام بحقيقة مأرب تلك الحملات وتوصيفها من قبل الحكومة الروسية. وكانت تلك السياسة سبباً في ارتكاب السلطات العثمانية عدة مجازر ضد القوميات التابعة لها كالأرمن والبلقان والعرب. ولم يخفى الروس حقيقة أهداف الحملات التبشيرية في القدس وغيرها من الأقاليم اذ مثلت هذه الحملات العيون الروسية في الأقاليم العثمانية، ولم تكن بعيدة عن كل حدث فيها بحجة التبشير. بل أنها رصدت عن طريق المبشرين جميع تحركات الدول الغربية المنافسة لها في المنطقة فظهرت البعثات التبشيرية كجزء من الدبلوماسية الروسية العامة اذ عمقت الحكومة الروسية أثرها في المنطقة عن طريقها. الاان تلك الحملات لاقت الفشل في نهاية القرن التاسع عشر من القدس لقلة الموارد المالية وذلك من اجل اهدافها في الوصول الى البحر الأسود، ولقوة المنافسين من جمعيات تبشيرية كاثوليكية وبروتستانتية المدعومة من دول أوربا الغنية.

الهوامش: -

١. بيانوف، فيدسوف، موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمه خيري الضامن، موسكو، بلا، ص٤١؛ المطران ميشيل يتيم، تاريخ الكنسية الشرقية، لبنان، ١٩٩١.

٢. Maureen Perrie , The Cambridge history of Russia , Vol. I , Cambridge . 2001؛ د. محمود سعيد عمران، تاريخ اوربا في العصور الوسطى، بيروت، ٢٠٠٦، ص٣٧٤.

٣. ب. م. دانتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الاوسط، ترجمة معروف خزنة دار، بغداد، ١٩٨١، ص ٢٣.
٤. ف. م. فينوسوف، حياة وسيرة الراهب دانيال رئيس الارض الروسية، ترجمة: معروف خزنة دار، بغداد، ١٠٨١، ص٢٤.
* أسم لحوض ماء الينابيع يقع في القسم الجنوبي من المدينة ويعد من الاماكن المقدسة حتى يومنا هذا.
٥. القديس أن ٠أن ليتينسكي، الحج المسيحي الى الارض المقدسة، سان بطرسبورغ، ١٩٠١، ص٢٠(باللغة الروسية)٠
٦. فينوسوف، المصدر السابق، ص ٢٥
٧. عبد القادر أحمد اليوسف، الامبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٦٦، ص٢٠.
٨. J. T. Saunders, the history of the Mongol Conques and Russia, Yale, 1970. ؛ بيرتولد شبولير، المفعول في التاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، دمشق، ١٩٨٩.
٩. عمرو فروج ومصطفى الخالدي، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٢٧.
١٠- هربرت فيشر، اصول التاريخ الاوربي الحديث، ترجمة زينب عصمت راشد، القاهر، ١٩٦٢، ص ٣٦٥.
١١. د. نوري السامرائي، تطلعات روسيا القيصرية نحو فلسطين في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة المجمع العلمي، ج٤، مج ٥١، بغداد ٢٠٠٤، ص١٣٢.
١٢. دانستيغ، المصدر السابق، ص ٥١ – ٥٦.
١٣. مشعل مفرح ظاهر الشمري، روسيا القيصرية في عهد القيصر بطرس الاكبر، ١٦٨٩ – ١٧٢٥، أطروحة دكتوراه غير منشوره، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٦.
14. Ste phen J. Lee, Peter the Great , London ,1993 , P. 24 .
١٥. ليتينسكي، المصر السابق، ص ٢١.
16. Simon Dixon , The Modernisatan of Russia 1676 – 1825 ,P III .
١٧. علي جودة صبيح المالكي، روسيا القيصرية في عهد كاترين الثانية ١٧٦٢ – ١٧٩٦، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البصرة/ كلية الدراسات، ٢٠٠٩.
18. T. C. Hure Witz , Dimp Lomacy in The near and Middle East ADocumentary Record 1535 – 1914 , U. S. A 1959 ,Treaity of Peace (Kucuk Keynarca) 10/2/Tuly 1774 , PP. 54-61
١٩. بيتر شوجر، اوربا بالعثمانية ١٣٥٤ – ١٨٠٤، ترجمة عاصم الدسوقي القاهرة، ١٩٩٨.
20. The Treaty of Jassy, a January , 1792 ,Cited in M. S Anderson , Eastern Qustion Relevatins , London , 1974 , PP 2 – 28
٢١. أي٠أي دي ديميتريسكي، الشخصية الدينية في الشرق الاوسط وفلسطين،ج ١٥،بطرسبورغ،١٩٠٤، ص ٦٨.
٢٢. السامرائي، المصدر السابق، ص ١٣٨.
٢٣. دانستيغ، المصدر السابق، ص ٢٥٥.
٢٤. ارشيف رئاسة الوزراء، رقم البحث ١٧٠، دفتر مهمة ٢٥٤، صص ٤٥ – ٤٦، كانون الاول ١٢٥٦هـ. ؛ محمد سعيد الطريحي، المسيحية في الشام، دمشق، ٢٠٠٨، ص٢٦٥.
٢٥. محمد كمال الدسوقي، المسألة الشرقية، القاهرة، ص ٦٧.
٢٦. لوتسكي، تاريخ الاقطار العربية الحديث، بيروت، ٢٠٠٧، ص١٤٧.
٢٧. الشعبة الخامسة في الاركان العامة للجيش اللبناني، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، بيروت، ١٩٧٣، ص٤٧.

28. F. E. Peter , Terusakm ,Prin Cetan university Press , 1985 , P. 479

٢٩. هاشم صالح التكريتي، المسألة الشرقية ١٧٧٤ – ١٨٥٦، بغداد، ١٩٩٠، ص١٧٦.

٣٠. أن٠أن ليسوفوى ، المؤلفات الدينية،معجم ٣٥ ،موسكو،١٩٩٩،ص٢٥٣ (بالروسية)٠

٣١. نعيم كريم عجيمي، مترنيخ ودوره السياسي في اوربا، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، ٢٠٠٦.

32. Anderson , OP. cit. P. 123

33. V. J. Puryear, England, Russia and the Strits Qustion 1844 – 1856, London, 1465, P268.

٣٤. التكريتي، المصدر السابق، ص١٧٩ – ١٨٠.

٣٥. في٠ان٠خيتروف، المؤلفات الدينية، معجم ٣٦، موسكو، ٢٠٠١، ص٣٩٨(بالروسية)٠

36. Puryear , oP. cit. P. 310

٣٧. فروخ، المصدر السابق، ص ١٣٠.

٣٨. حبيب محمد صالح، البعثات التبشيرية الارثوذكسية في بلاد الشام ١٨٤٠ – ١٩١٤، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق السنه ١٨، العدد ٦٥– ٦٦، ك١، ١٩٩٨، ص١٥٦.

٣٩. مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١٠، القسم٢، فلسطين، ١٩٧٦، ص٤٦.

٤٠. صالح، المصدر السابق، ص١٥٧.

٤١. ابو حسين، المصدر السابق، ص١١.

٤٢. عبد العظيم، رمضان تاريخ اوربا الحديث والمعاصر، ج٢، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٨٢.

٤٣. لوتسكي ، المصدر السابق ص٣٩.

44. Tess D. clar kson ,Ahistary of Russia from the Ninth Century, London, 1962, PP. 390–392.

٤٥. صالح، المصدر السابق، ص١٦٥.

٤٦. المصدر نفسة، ص ١٦٥–١٦٦.

٤٧. المصدر نفسة، ص ١٦٦.

٤٨. الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني، ترجمة: عبد الرحيم ابو حسين وصالح سعداوي، عمان١٩٩٨، ص١١.

٤٩. عز الدين، المصدر السابق، ص٧٥ .

٥٠. صالح، المصدر السابق، ص١٦٧ .

٥١. المصدر نفسة، ص ١٦٨.

٥٢. هدى علي بلال، متصرفية القدس في العهد العثماني ١٨٧٤ – ١٩١٨، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٥، ص١٧٦.

53. Peter,OP. cit, P. 485.

٥٤. صالح، المصدر السابق، ص١٧١.

٥٥. فروخ، المصدر السابق، ص ٧٦–٨٩.

٥٦. صالح، المصدر السابق، ص١٧٥–١٧٦.

٥٧. أي٠أي٠ديميتريسكي، الشخصية الدينية في الشرق الاوسط وفلسطين، ج١٥، بطرسبورغ، ١٩٠٤، ص٥٤.

٥٨. عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٦–١٩١٦، دمشق، ١٩٩٤، ص ٤٢٩.

٥٩. محمد جميل بيهم، الحلقة المفقودة في تاريخ العرب،د٠م، ١٩٥٠ص ٢٢٤.

٦٠. وجيه كوثراني الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، ١٨٦٠–١٩٢٠، بيروت، ١٩٧٨.